معسكر الكشافة الأهلى برومانيا

- ٣ -

وصلت الباخرة بنا إلى (إستامبول) فى الساعة الخامسة مساء ، وقيل لنا إنها لن تتحرك إلا بعد ظهر الغد بساعتين ، وإذاً ، فقد كان أمامنا متسع من الوقت ، فكيف يمكن أن نقضيه ؟! كان أول ما عملناه أن اخذنا نبحث عن مطعم نذوق فيه الخضر واللحوم بعد أن سئمت أمعاؤنا (السردين) ، وضاقت صدورنا (بالتونه) والزيتون . وكان فينا صديق (مثقف) صمم على أنه يعرف التركية ، وتبرع بأن يقوم بمهمة الترجمة لنا فى بلاد الأتراك ، فلما أخذنا مجالسنا فى المطعم ، واختار كل منا اللون الذى يشتهيه ، جعل صديقنا يذكر الأصناف إلى الخادم فى لغة صعبة لا نفهمها ، ونحن له مطمئنون . لكن لم يلبث صاحبنا أن ظهرت قدرته ، وبان لنا غزير علمه ، وانحنينا أمامه شاكرين : ألست أطلب خضراً فيؤتى لى بلحم ، ويطلب جارى (كبابا) فيكون نصيبه سمكا !! . ألسنا نلح فى طلب البطيخ فيقدم لنا (الخشاف) وننادى (سلطه) فيحضر لنا من الحلو أصناف !! . وما ذنب الخادم ، وهو يفقد لنا كل ما نريد ، بل ما ذنب صاحبنا الفيلسوف نفسه ، وهذا مبلغ علمه باللغة التركية !! . هكذا تمتعنا بلذة الأكل وتزودنا منه لباقى الطريق ، . ورحنا نطلب الماء فإذا ماء الشرب فى إستامبول يشترى ويباع — نعم ، لا بد لك من أن تدفع ثمن زجاجة الماء إن طلبتها فى مطعم ، ولا مفر من أن تطالب بقرش إن احتجت إلى كوب ماء فى الطريق ، وكانت الفرصة متسعة فى الصباح ، فلم نتركها تمر من دون أن نشاهد ما بعاصمة

التركِ القديمةِ مِنْ متاحفَ ومَساجدَ وآثارٍ ، ولنْ أحاولَ هُنا أنْ أصفَ لكَ جمالَ المدينةِ ، أوْ أحدِّثكَ عمَّا رأيتُهُ فيها ، فأنتَ تُطالعُ (سميرَ التلميذِ) كُلَّهُ وإنَّكَ واجدٌ كفايتَكَ فيما يكتبُ (سميرٌ) عنْ رحلتِهِ إلى (إستامبولَ) ... عُدْنا ظهراً إلى السَّفينةِ لنُلقيَ على المدينةِ نظرةً أخيرةً قبلَ الرَّحيلِ ، ووقفْنا على سطحِها لنملأَ العينَ بجمالِ الطَّبيعةِ وسحرِ منظرِ البوسفورِ ، وأخذَ الرُّبّانُ يُديرُ سُكّانَهُ (دفّتَهُ) ، وتحرّكتْ بنا الباخرةُ في بُطءٍ وحذرٍ ، وأخذْنا نقتربُ منَ البحرِ ، فإذا بهِ قدْ بدأَ غضبُهُ وساءَ استقبالُهُ ، وهاهيَ الأمواجُ تعلو فيهِ كالجبالِ ، بلْ هاهيَ بوادرُ الأمورِ تُرينا أنَّ ليلتَنا ستكونُ كاسمِ البحرِ سوداءَ ، لا نعرفُ فيها راحةً ولا نتمتّعُ فيها بنومٍ — وما أنسى ساعةَ أنْ تركتِ الباخرةُ مياهَ البوسفورِ ، ودخلتِ البحرَ الأسودَ ، وكيفَ كانتْ على ضخامتِها كالريشةِ في مهبِّ الريحِ ، يلعبُ بها البحرُ في سهولةٍ ... وهكذا كانتْ ليلةُ البحرِ الاسودِ ليلةً سوداءَ عبستْ لنا الطبيعةُ فيها ، وحشدتْ لنا جنودَها ، فالريحُ عاصفةٌ ، والبردُ شديدٌ ، والماءُ في تمايلِ السفينةِ ، يصلُ إلينا ، فما ينجو منهُ الذينَ كانوا في أشدِّ أجزاءِ المركبِ ارتفاعاً . ولقدْ تبدّلتْ بحياةِ المسافرينَ حياةٌ أخرى لا أثرَ للمرحِ فيها ولا وجودَ لهُ . نعمْ ، فهذا الذي يحاولُ أنْ يمشيَ خطوةً تدفعُهُ قوّةُ الهواءِ ، فيتراجعُ إلى الورراءِ خطواتٍ ، وتلكَ الوجوهُ التي كانتْ ضاحكةً ، يكادُ دمُ الحياةِ ينفجرُ منها ، قدْ تغيّرَ لونُها ، وعلاها منَ التعبِ اصفرارٌ ، وهذهِ البطونُ التي كانتْ تلتهمُ الأكلَ وتطلبُ منهُ المزيدَ ، قدْ أصبحتْ أكثرَ ما تكونُ زهداً في الطعامِ ، بلْ إنَّها لترفضُهُ وتفرّغُ في البحرِ ما بقيَ فيها منْ قديمِ الزادِ ... وهؤلاءِ الكشّافونَ أنفسُهمُ الذينَ كانوا روحَ الحياةِ على ظهرِ الباخرةِ ، والذينَ كانوا حركةً دائمةً لا وقوفَ لها ولا سكونَ ، قدْ تعبوا كما تعبَ باقي المسافرينَ ،

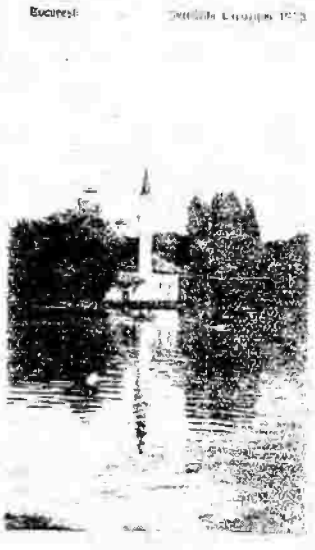
مسجد بوخارست

وَلَمْ يَجِدْ مَعَهُمْ شَايٌ أَوْ بَصَلٌ أَوْ لَيْمُونٌ ، وَتَمَتَّعَ النَّاسُ عَلَى الْبَاخِرَةِ مُنْذُ الْعَصْرِ بِنَوْمٍ عَمِيقٍ . وَاسْتَيْقَظْنَا فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي مُبَكِّرِينَ ، فَبَدَا لَنَا الْبَرُّ ، وَزَادَ تَطَلُّعُنَا إِلَى رُومَانْيَا وَجَمَالِهَا .

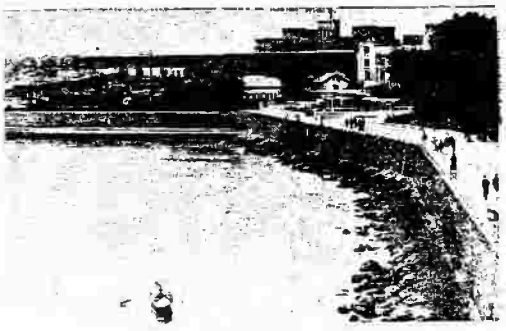

شاطىء البحر فى كونستانزا

وَالْمُسَافِرُ فِي السَّاعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ رِحْلَتِهِ كَثِيرُ الْعَمَلِ ، يَحْزِمُ مَتَاعَهُ ، وَيُعِدُّ عُدَّتَهُ ، وَيُغَيِّرُ لِبَاسَ الْبَحْرِ ، اسْتِعْدَاداً إِلَى لِقَاءِ أَقْرِبَائِهِ وَأَصْدِقَائِهِ الْمُسْتَقْبِلِينَ . أَمَّا نَحْنُ فَكَانَ عَلَيْنَا أَنْ نُنْزِلَ مِنْ أَعْلَى السَّفِينَةِ خِيَمَنَا ، وَأَنْ نَحْلِقَ لِحَانَا ثُمَّ نَنْتَظِمَ صَفّاً وَاحِداً فِي زِيِّ الْكَشَّافَةِ ، وَقَدْ عَلَتْ رُءُوسَنَا الطَّرَابِيشُ . فَإِذَا رَسَتِ الْبَاخِرَةُ فِي (كُنستنزا) مِينَاءِ رُمَانْيَا عَلَى الْبَحْرِ الْأَسْوَدِ ، وَسَمِعْنَا سَاعَةَ الْمَدِينَةِ (تَدُقُّ) فِي الصَّبَاحِ أَرْبَعَ (دَقَّاتٍ) ، نَادَى الرَّئِيسُ ، فَانْطَلَقْنَا نُنْشِدُ نَشِيدَنَا الْقَوْمِيَّ بَيْنَ تَصْفِيقِ الْمُسَافِرِينَ وَدَهْشَةِ الْمُسْتَقْبِلِينَ ، وَقَدْ أَفْسَحُوا لَنَا الطَّرِيقَ تَكْرِيماً ، فَكُنَّا أَوَّلَ النَّازِلِينَ . لَمْ يَطُلْ بِنَا الْمُقَامُ فِي (كُنستنزا) إِذْ كَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَأْخُذَ قِطَارَ الصَّبَاحِ لِنَسْتَطِيعَ أَنْ نَحْضُرَ فِي الْغَدِ حَفْلَ افْتِتَاحِ الْمُعَسْكَرِ ، وَبَيْنَنَا وَبَيْنَ مَكَانِهِ بُعْدٌ شَاسِعٌ وَسَفَرٌ طَوِيلٌ . وَوَصَلَ بِنَا الْقِطَارُ بَعْدَ الظُّهْرِ إِلَى (بُوخَارِسْتَ) عَاصِمَةِ رُومَانْيَا ، وَكَانَتْ طَرَابِيشُنَا فِي مَحَطَّتِهَا ، كَمَا كَانَتْ فِي كُلِّ مَكَانٍ آخَرَ ، مَوْضِعَ الدَّهْشَةِ وَمَحَطَّ الْأَنْظَارِ ، لَكِنْ شَاءَ رَبُّكَ أَنْ يَرْحَمَنَا مِنْ نَظَرَاتِ النَّاسِ ، فَقَدْ تَحَرَّكَ الْقِطَارُ مِنَ الْعَاصِمَةِ بَعْدَ انْتِظَارٍ غَيْرِ طَوِيلٍ قَاصِداً (بْرَاشُوف) أَقْرَبَ

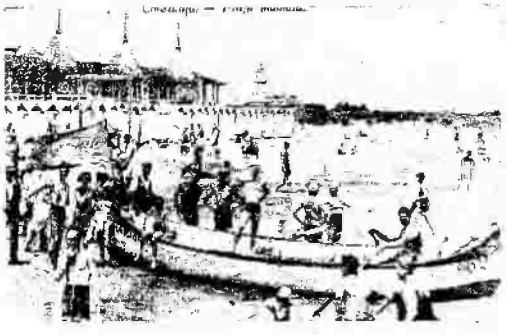

بلاج مامايا اجمل بلاج فى كونستانزا

مَحَطَّةٍ إِلَى مَقَرِّ الْمُعَسْكَرِ مُنْتَقِلاً مِنْ سُهُولِ رُومَانْيَا الشَّرْقِيَّةِ إِلَى مُرْتَفَعَاتِهَا الْغَرْبِيَّةِ ، وَتَارِكاً الْحَرَارَةَ الشَّدِيدَةَ إِلَى حَرَارَةٍ تَأْخُذُ فِي الِانْخِفَاضِ ، حَتَّى نَصِلَ إِلَى حَالَةٍ مِنَ الْبُرُودَةِ لَا عَهْدَ لَنَا بِهَا فِي

مصر فى أشد أيام الشتاء برداً ، فإذا وصلنا إلى المدينة فى المساء ، استقبلنا فيها كبار رجال الكشافة فى رومانيا مرحبين مسلمين ، وقد رأوا أن ننتظر فى (براشوف) حتى الصباح بدل أن نقطع المسافة إلى أرض المعسكر فى ظلام الليل ، فلا نتمتع بجمال المناظر وبهاء الطريق... قضينا الليلة فى مراكب الدرجة الثانية ، على كراسيها الوثيرة وفى جو أكثر دفئاً . وقد نمت نوماً لا عهد لى به ، ولا شك أنى لم أتحرك إلا حين سمعت صوت رئيس الرحلة ينادى فى الساعة الرابعة . وكان يؤذى ألا أسمعه ، وأن أظل أتقلب على جنب بعد جنب فى لذة كبرى . لكن أوامر الرئيس كانت حازمة . وكان موعدنا مع إخواننا الجوالين الرومانيين الساعة الخامسة صباحاً وكانوا - كعهد كل كشاف - يحافظون على الوقت ، فقد كانت السيارات منتظرة فى الموعد المضروب تماماً ، وكانت أيدينا واكفنا مستعدة لحمل المتاع ، وكنا جميعاً على أتم أهبة واكمل استعداد ، ولعل أكبر الجموع التى رأيناها حتى الآن تلك التى احتشدت فى ميدان المحطة ، تنتظر وصول الكشافة المجريين الذين تربطهم بهم روابط القرابة ، فقد كان غرب رومانيا قبل الحرب جزءا من المجر ، يتصل به اتصالا . وكم كان جميلاً أن تقابلنا تلك الجموع هاتفة مصفقة ، وأن تحيينا صفوفها ملوحة متحمسة حين انطلقت بنا السيارات تقطع شوارع المدينة فى طريقها إلى أرض المعسكر فى أعلى الجبال ، لكن شيئاً واحداً بدأ يضايقنا ، هو ذلك البرد القارس الذى أخذ يهاجمنا ، والذى أعاد إلى أذهاننا أشد أيام ديسمبر ويناير زمهريراً ، يزيده فيه سماء لبدتهم غيوم معتمة تنذرنا بمطر غزير وإلى اللقاء ...

(يتبع) اخوك الجوال - عمار